النافذة

للأستاذ محمود خيرت بك

... نعم ياصديقي كانت تلك النافذة موضع الداء والدواء . وكنت وأنا متجه في الصباح إلى عملي أجدها مقفلة فأسير قدماً لا تتحرك لها نفسي ولا تأخذ كثيراً أو قليلاً من التفاتي . وكان يستوي عندي أن أجتاز الزقاق المطلة عليه أو أن أسلك طريقاً آخر

وكثيراً ما كنت أسمع من إخواني أن في الحياة قوة خفية تسوق الانسان أحياناً إلى حيث لا يريد أو تدفعه إلى عمل هو بعيد عن التفكير فيه ، فكنت أثور عليهم وأحتد متعصباً لرأيي في أن الإنسان بحواسه وعقله مسيطر على أعمال نفسه حر في حركاته ؛ حتى إذا كان يوم تهيأت عنده للذهاب إلى الديوان أخذت طريقي إليه دون أن أجتاز ذلك الزقاق . ولكني بعد إذ تركته خلفي بنحو أربعين متراً انكفأت راجعاً وأنا أحس في أعماق نفسي حافزاً إلى العودة بغير أن أقوى على دفعه . وما كدت أسلك الزقاق بعد ذلك حتى وجدت النافذة مفتوحة وسمعت كأن بالغرفة حركة فوقفت أمامها لحظة ثم استأنفت سيري

وإذا كانت ساعات العمل بالديوان قد أنستني تلك النافذة وما كان من أمر عودتي إليها رغماً مني ، فإنني لما حان موعد الانصراف وجدت قدمي تسبقانني إليها كأن بها قوة مغناطيسية تجذبني نحوها . وكانت على ما عهدتها في الصباح فتركتها إلى منزلي وأنا أفكر فيها

وقد بلغ من أمري أنني كنت أتمنى كل يوم لو أن ليلتي لا تطول فأسارع إلى الوقوف تحت تلك النافذة وأنا ذاهل مشرد أشعر في ضباب خواطري بشيء مشوش لا أتبين حدوده ولا أصل إلى فهم معناه

ما كانت تلك النافذة إلا إطاراً خلا من صورته ، أو عيناً مفتوحة من عيون تلك الغرفة ، ولكني لا أستطيع أن أنفذ منها إلى قرارها

وكنت على عادتي أمرّ من أمامها فلا أسمع ولا أحس شيئاً ، حتى طرق أذني ذات يوم صوت من داخلها ناعم أغن فقلت لا ريب في أنه صوت ربة الدار وقد امتلأ منه مسمعي وأخذ يلعب بي كما تلعب الراح بالشارب

وكثيراً ما كان وهمي يحاول أن يصورها لي ، فأضحك على غفلتي إذ قد تكون صورة ناطقة بالدمامة وإن خدع صوتها السامع كما يخدعه صوت الكروان . ولكني أعود فأكذب خيالي لأن القبح لا يتلازم معه جمال الصوت ، ولأن الأقدار التي تخلق الجميلة قل أن تبخل عليها بمثل هذا الصوت العذب الرخيم

وعند ذلك ينفسح لعيني أفق الخيال من جديد فأراها معجزة من معجزات الحسن وآية من آيات الفتنة ، وكأني أنظر إلى عينيها وخديها وقدها فلا يصادفني إلا لحظ ساحر وورد ناضر وغصن متأود مياد ، حتى كنت إذا مررت أمام دارها أكاد أهم باقتحام بابها لأملأ عيني منها وأضع حداً لهواجسي التي كانت تزيد في عذابي

وبينما أنا ذات يوم أجتاز ذلك الزقاق سمعت حركة عند النافذة ، فما أن رفعت بصرى إليها حتى خفق قلبي وساخت روحي لأنها كانت فوق ما تخيلت ؛ وكانت تسقى أصيصاً به غصن يحمل قرنفلا ، فلما أبصرتني غلب عليها الحياء وحاولت أن تتراجع فاندفع الأصيص يهوى من فوق ولكنى تلقفته قبل أن يصل إلى الأرض . ويظهر أنها ارتاعت خشية أن يصيبني ، فلما رأتني أحمله أسرعت إلى الباب ومدت من فجوته ساعداً بضاً كالعاج تتناوله وهى تقول : « كتر خيرك » . قلت لها : « بس كده ؟ » وعند ذلك برزت لى برأسها الجميل وناولتنى قرنفلة قبلتها وشممتها ، فأخذت تركز فىّ نظرات طويلة كلها فتنة وسحر ، وجسمها يرتجف وأنفاسها تتلاحق . ثم أسرعت ترد الباب رويداً رويداً ولكنها عادت ففتحته وكنت لا أزال فى مكانى حائراً ذليلا فقالت لى : « كفاية كده » ، وهى تبتسم ثم ... اختفت

ولقد أخذت مجلسى أمام مكتبى وأنا لا أشعر إلا بأننى فى الزقاق أحدّق فى النافذة وأتلقّف الأصيص ... ثم تلك القرنفلة وتلك الابتسامة العذبة وفيها كل أسباب الغبطة ومعانى الرضى . على أننى انتبهت من حلمى والقرنفلة لا تزال بين أناملى فقربتها من عينى وفى أرويها بدمعى وأمطرها قبلى ، ثم أخذت أتأملها وقد خيّل إلىّ أنها فرع من ذلك الغصن اللدن الناعم يحمل إلى أرج أنفاسها . وبعد ذلك ينتقل بى تأملى إلى أنها زهرة لا تعمر أكثر من يوم . فهل ما بدأت أشعر به من إقبال الحظ لن يتجاوز هذا المدى ؟ أم أنها ستمنحنى زهرة أخرى أشهى منها هى زهرة الحب ؟

أصبحت هذه الفتاة غرامى وشغلى ، وأنا كلما مررت تحت نافذتها شملتنى بابتسامة أو ألقت إلىّ زهرة ، أو أرسلت لى فى الهواء قبلة فأذهب إلى عملى نشوان سعيداً

وكثيراً ما كنت أراها فى الصباح بعد حلم نعمت بطيفها فيه حتى كأننى لم أستيقظ منه . وقد مضى على ذلك شهر وأنا أستقبل عند مطلع كل شروق شمس وجهها الصبوح تبعث فى نفسى نشوة جديدة تزيد فى نارى وتضاعف حرقتى فأتمنى لو أننى أصل معها إلى آخر كتاب الهوى الذى تتبادل مطالعته كل صباح ، حتى إذا غلبنى الوجد وخاننى الجلد عولت على أن أضع بينها وبينى حداً بالزواج

وكانت سنها لا تتجاوز سبعة عشر ربيعاً ، فهى إذن لا تزال عذراء ، كما أنها لم تفتح قلبها لغيرى وإلا كانت أهملتنى وصدفت عنى . فاستقر هذا الرأى فى نفسى وأرجأت تنفيذه إلى الغد

وقطعت تلك الليلة مضطرباً أتقلب فى فراشى وأقلب ما فكرت فيه على كل وجوهه إلا وجهاً واحداً هو : من عساها أن تكون ؟ ومن هم أهلها وعشيرتها ؟ نافراً من محاولة البحث فى ذلك . إذ ماذا يهمنى من نسبها مهما اتضع أو مالها مهما ارتفع وما أردتها إلا لذاتها : لجمالها وسحرها وفتنتها

وقد عولت عند الصباح على ألا أسلك ذلك الزقاق لأتفرغ إلى إعداد نفسى لتحقيق تلك الغاية ، وكذلك عند عودتى لدارى . وبعد أن ارتحت فى مضجعى قليلا قمت فقصدت منزلها ، وأنا أهتز من الفرح بلقياها

ولكننى ما كدت أدنو منه حتى ألفيت نافذتها مغلقة وعلى الأرض من تحتها ذلك الأصيص مطروحا مهشماً ، فانقبض صدرى وأظلمت الدنيا فى عينى . على

أنني أخذت أطرق الباب طرقاً متوالياً فلم أظفر بمجيب ، وعند ذلك أقف مبهوتاً حائراً أسائل نفسي لم ألقت هكذا بهذا الأصيص ؟ وإذا كانت قد عزمت على الرحيل فلم لم تكاشفني به وأنا أمر أمام نافذتها كل صباح ؟ ثم أقول لابد أنها فوجئت بهذا السفر وأنها انتظرتني ، فلما لم ترني كعادتها لم تر إلا أن تلقي بوعاء زهرها ليكون شاهداً على انتظارها ويأسها

وبينما أنا أطرق الباب أطلت عجوز من منزل قريب وقالت : إن أهل هذا البيت انتقلوا منه . وعند ذلك دار رأسي وتصبب عرقي ولا سيما عند ما قالت لي إنها لا تعلم عنهم شيئاً لأنهم كانوا لا يختلطون بأحد من جيرتهم . وهكذا تحطم قلبي كما تحطم هذا الأصيص . وأخذت أرجع إلى تلك القوة الخفية فأراها هي التي جعلتني أنكص على عقبي يوم صادفت النافذة مفتوحة ، وهي التي جعلتني لا أمرّ من تحتها في صباح هذا اليوم فترحل بغير أن أودعها ، فهي إذن التي أرادت بكل ذلك أن تسخر مني وتتسلى على حساب ألمي !

وأخيراً جمعت حطام تلك الآنية وحملته معي إلى داري

كنت أذهب بعد ذلك إلى عملي وأنا أسلك هذا الزقاق لعل تلك النافذة تفتح يوماً ما مصراعيها لتضم بينها نظراتي . وكنت أتمنى لو أن عينيّ تثبان من حفرتيهما إلى مصراعيها لتنظرا من خلال أخشابها أرض تلك الحجرة التي طالما نعمت بخطواتها

أما ذلك الأصيص المحطم فقد عنيت بصيانته في قمطر كتبي . وكنت دائماً أملأ منه عينيّ كأنني أمام متحف يضم بقايا آنية قديمة ثمينة . على أنني استبدلت به سواه وأخذت أتعهد تلك الزهرة التي سقتها يداها . وكنت كلما انبثقت منها قرنفلة تعروني هزة لا تلبث أن تتلاشى ، وقد حرمت تلك الأنامل الرخصة التي كانت تقطفها وتقذف إليّ بها ومن خواطر الحب التي كانت تختلج في صدرها بسببي عند كل حركة من تلك الحركات

أما عملي بالديوان فقد أهملته إهمالاً ولذلك اعتزلته ، ولي من يساري ما يكفيني . وقد ورثت عن أبويّ نحو مائتي فدان من أجود الأرض بعزبة النخل ، غير بستان واسع مكتظ بمختلف الأشجار المثمرة

ولعلك تذكر يا صديقي أنك يومئذ نصحتني بذلك لأتولى شؤونها بنفسي ، ولأسترجع بالهواء الطلق ومناظر الريف ما ولّى من عافيتي على أثر تلك الصدمة التي كتمت عنك سببها

ولكم حاولت بالعمل أن أنسى فأخفقت محاولتي . ثم أنّى لمثلي النسيان والجرح الذي أصابني فادح لا يندمل ، فأخذت قواي تنحلّ يوماً بعد يوم حتى اصفر لوني وشحب وجهي وغارت عيناي وكاد جلدي يلصق بعظمي

وعند ذلك فكرت عمتي في الكتابة إليك لتسارع إلى الانفاق مع طبيب قدير ينتقل إليّ . فلما فحصني صرّح بأنه لا يجد علة ما لضيق . وساد بعد ذلك صمت قطعته بقولي : إني أعلم أن علتي لا يرجى لها برء . فقال : أنت إذن تعرف علتك فلمَ لا تذكرها فلعلي أوفق إلى شفائك أو على الأقل إلى درء خطر هذا الضعف عنك . وعند ذلك عدت إلى صمتي ، فاقترب مني وأخذ كفي بين يديه وهو يقول : لمَ تكتمها عني . إن المحامين والأطباء قلّ أن ينجحوا في عملهم مستقلين عما يعلمه أصحاب الحقوق والمرضى من قصادهم . على أن أسرارهم دائماً في حرز مكين من صدورهم وقد أقسموا على ذلك قبل مباشرة مهنتهم

وعند ذلك ظلت صامتاً وقد تضعضعت نفسي وأنا لا أرتضي أن أتخذ من هذا السر الدفين مجازاً إلى إجابته . ولكنه استمر في عتبه قائلا : كيف تصرّ على كتمان أمرك عني ؟ إنني الآن لم أعد طبيبك ، فقد انتهت مهمتي معك فلعلك تكرمني باعتباري أخاً لك أو صديقاً . ثم اعلم أنني لن أقوى على العودة دون أن أقف على ما يعذبك لأن ما أصبحت فيه من سوء الحال مما يحزنني ويحزّ في قلبي . تكلم يا عزيزي ، تكلم بحق هذه العمة الطيبة الرحيمة .

وعند ذلك فاضت نفسي بالشجون ، وانهمر من عيني الدمع ، وأخذت أقص عليه ما رويته لك في هذه السطور وأنا أجيبه بأني لا أعلم من أمرها شيئاً لا اسمها ولا أسرتها ولا مكانها

ومن الغريب أنه بعد أن سمع عنها هذا البيان المبهم انبسطت أساريره وارتاحت نفسه . بل لقد كان يخيّل إليّ أنه يبتسم وهو يحاول ألا ألحظ ذلك . ولما انتهيت من حديثي قال : إن حادثتك هذه عجيبة ، ومع ذلك فقد وقع ما يشبهها لكثيرين أعرف منهم شابة جميلة كاد يعصف بحياتها الحزن . ولكنني أقنعتها بالكف عن الجرى وراء أمل لا فائدة منه ، وقد سمعت لأرشاوى فلم لا تضع نفسك في موضعها يا سيدي وهي فتاة ضعيفة وأنت شاب قوي ؟ ثم إن مثل هذا المرض النفساني وخيم العاقبة على من لا يكون قوي الإرادة ماضي العزم . وإني لأعرف أن لك مذهباً طالما كنت تعتزّ به وتنتصر له ، وهو أن لكل إنسان لو شاء سلطاناً من نفسه على تصرفاته . وكثيراً ما كنت تحتج بهذا المذهب على إخوان لك ولي وإن كان الزمن واليأس الذي أنت فيه جعلاك تنساني وقاما سداً بين ذاكرتك وبيني

على أنني مع هذا سأضع لك نظاماً دقيقاً تتبعه في طعامك وشرابك ورياضتك وأرجو أن تكون عند حسن ظني من قيامك عليه واتباعه . ومع ذلك فسأرسل إليك من الغد ممرضة في مستوصفي بل إنها رئيسة ممرضاته ، وليست إلا أختي وستحمل إليك تفصيل هذا النظام ، فأكرر رجائي ألا تعارضني فيه . وعما قريب تعلم كيف أنني بفضل مساعدتها سأردّ باذن الله حياتك إليك من جديد . وعند ذلك انصرف فأرسل إلي في صباح اليوم التالي برقية حدد فيها موعد قيامها وساعة وصولها ، فأرسلت بعض أتباعي لانتظارها

وبعد ثلثي ساعة طرق أذني صوت جلبة في عرصة الدار فأدركت أنها أقبلت ، ولكن عمتي أسرعت إليّ وأخذت تضرب كفاً على كف وتقول : كيف يا ولدي يرسل طبيبك بمثل هذه الممرضة ، وهي أولى بالتمريض منك لأنها لا تكاد تخطو من شدة ما هي فيه من الضعف والهزال ؟ وعند ذلك دخلت وهي تتحامل على نفسها مستندة إلى أحد الخدم حتى إذا وقفت على مقربة مني وحدقت في سقطت مغشياً عليها فأسرعت نحوها ورفعت رأسها بيدي فاذا بها ... تلك الصورة التي كانت تزين ذلك الإطار القديم ...

أما الآن فالحمد لله على ما استرجعنا من العافية وعلى ما كتب لنا من السعادة . وهاهي ذي وأنا أخط لك هذا إلى جانبي تنفذ نظراتي من عينيها إلى قلبها الذي أصبح محراب حبي ، وما كانت من قبل لتنفذ إلى حجرتها من تلك النافذة .

محمود خيرت